

دور التواجد العثماني في التأسيس للدولة الجزائرية الحديثة
The role of the Ottoman presence in establishing the modern
Algerian state

رانجة زكية

randjazakia@hotmail.com

كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية – جامعة الجزائر 3

تاريخ القبول: 2011/ 05 / 05

تاريخ الاستلام: 2011/ 03 / 22

Abstract:

Through this research paper, we are trying to shed light on the history of Algeria under the Ottoman presence, which was an important and decisive period in the formation of the components of the Algerian nation and the entity of its distinguished state, with the availability of the following basic elements:

- Choose the capital, which is the city of Algeria.
- Drawing borders and setting administrative laws.
- Establishing economic and social systems.
- Establishing foreign political relations within the scope of the Ottoman Empire.

Keywords : The French colonizer - drawing borders - the Ottoman Empire – France - Algeria

ملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على تاريخ الجزائر في ظل التواجد العثماني و التي كانت فترة مهمة و حاسمة في تكوين مقومات الامة الجزائرية و كيان دولتها المتميزة و ذلك بتوفر العناصر الاساسية التالية :

- اختيار عاصمة و المتمثلة في مدينة الجزائر.
 - رسم الحدود و وضع القوانين الادارية.
 - اقامة الانظمة الاقتصادية والاجتماعية.
 - اقامة العلاقات السياسية الخارجية ضمن نطاق الدولة العثمانية .
- الكلمات المفتاحية:** المستعمر الفرنسي - رسم الحدود - الدولة العثمانية - فرنسا ، الجزائر.

مقدمة:

إن منع عشر أهم المبررات التي اتخذها الاستعمار الاوروبي في القرن التاسع عشر هو
رغبة الدول الاوروبية في نقل الحضارة ومساعدة الدول في باقي انحاء العالم على
الالتحاق بالركب الحضاري وبالتالي اعتبار هذه الدول مناطق فراغ حضاري وهذه هي
الفكرة التي اكد عليها الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر
اضافة الى ارجاع تكوين الدولة الجزائرية الى اندلاع المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي
مرجعين اصول الحركة الوطنية الى مقاومة الامير عبد القادر وبالتالي ظل تاريخ الجزائر
العثمانية اشبه شيء بفترة ما قبل التاريخ بينما هي على حد تعبير سعيدوني فترة حاسمة
في تكوين مقومات الامة الجزائرية باختيار عاصمة مدينة الجزائر ورسم حدود معينة
ووضع قوانين ادارية واقامة انظمة اقتصادية واجتماعية وعلاقات سياسية خارجية
ومحاولة منا لتسليط الضوء على اهمية هذه المرحلة من تاريخ الجزائر، ارتأينا تقديم
هذه الورقة البحثية المتواضعة والتي نطرح فيها الاشكالية الاساسية التالية :

الاشكالية :

في ماذا تمثلت أهم الأسس القانونية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذا
الثقافية والتي استطاعت دولة الجزائر ان ترسمها خلال العهد العثماني ؟
وللاجابة عن هاته الاشكالية قدمت هذه الورقة البحثية من خلال المحاور التالية :

اولا : دخول العثمانيين الى الجزائر .

ثانيا : نمط الحياة السياسية في الجزائر خلال العهد العثماني .

ثالثا : واقع التنظيم الاداري .

رابعا : نظام القضاء خلال العهد العثماني .

خامسا : الاوقاف او الاحباس .

سادسا : الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية .

سابعا : الاوضاع الثقافية .

اولا : دخول العثمانيين الى الجزائر

لقد ظلت مدينة الجزائر غير ذات اهمية خلال الاحقاب الرومانية و البيزنطية والوندالية وخلال سيطرت العرب، الا ان مدينة الجزائر بعد ذلك وفي العهد العثماني تطورت الى قوة بحرية قاهرة في المنطقة الغربية للبحر الابيض المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي وبقيت تشتهر بالجبروت والقوة خلال الفترة الطويلة لتدهور القوة العثمانية .

ولم يكن التدخل العثماني في المغرب العربي امرا متوقعا فالتدخل لم يكن نتيجة تصميم العثمانيين بل حكمت الظروف السائدة في المغرب العربي بعد غزوات الاسبان المتكررة على سواحلها وظهور كل من عروج وخير الدين بربروس للدفاع عنها و طلب من السلطان العثماني سليم الاول الانضواء تحت حكمه نتيجة مبادرة اشترك فيها اهل الجزائر كرد فعل منهما على التدخل الاسباني ، وبعد استتاب الامر وتوحيد الجزائر تحت مسمى واحد اصبحت الجزائر تحكم كدولة كبرى شأنها شأن أي دولة أخرى، واخذ حكامها على امتداد مراحل الحكم في عهد الدايات يطورون عمل أجهزتها الإدارية والمؤسسية واستكمال متطلبات الدولة الاقتصادية والاجتماعية دون التدخل بالنسيج الاجتماعي للحمة المغاربية، كما أن العلاقة بالدولة العثمانية باتت محدودة بعد فقد الأخيرة عددا من أراضيها لروسيا والنمسا واصبح الرابط الديني هو الذي يربط بين الاثنين، إذ أن الاتفاقات الرسمية بين الجزائر والدول الأوربية كانت تجري باسم الحكام الجزائريين وليس باسم السلطان العثماني¹.

و بالتالي فقد خضعت الجزائر الى الحكم العثماني في ظل ظروف مغايرة وسلكت لنفسها طريقا اختلف عن بقية الولايات العثمانية التي كان العثمانيون يشرفون عليها إشرافا مباشرا، وقد أبرزت الحقائق التاريخية أن حكام مدينة الجزائر في سياستهم الداخلية والخارجية لطالما كانوا يراعون مصلحة البلاد مع الاحتفاظ باحترام خاص للخلافة العثمانية بالقسطنطينية .

¹ - وليم سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة عبد القادر زيادية ، الجزائر : دار القصة للنشر ،

وقد ركز العثمانيون اهتمامهم بتشكيل جيش بحري قوي وفعال يضاهي فعالية الجيش البري العثماني في شرق أوروبا ولثانت هذه ضمن الإستراتيجية الكبرى التي وضعها العثمانيون للتغلب على أعدائهم المسيحيين وقد أعطيت موانئ الشمال الأفريقي احسن الامكانيات لتطور هذه السياسة².

ثانيا : نمط الحياة السياسية في الجزائر خلال العهد العثماني

لقد أقام الأتراك في مدينة الجزائر دولة المدينة بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح وقد جهزت بمؤسسة حكومية محدودة بشكل واضح وامتدت السيادة التركية من جبال طرطارة الى شمال نهر صغير قرب القالة ومنه باتجاه الجنوب حتى شط الجريد وهو ما يتطابق مع الحدود الحالية للجزائر وتونس وفي الغرب كانت تمتد الى حدود من ميناء حنين باتجاه الجنوب عبر طرارة إلى الصحراء والتي تشمل مدينة تلمسان³.

فتمركز الرسميين العثمانيين في تونس و طرابلس ثم اعتراف السلطان العثماني بسيادة السعديين والعلويين بعدهم في المغرب الأقصى قد ادى الى القاعدة التي يقوم عليها تواجد الاقسام الاربعة لشمال افريقيا الحديث .

وقد قامت الادارة العثمانية لمدينة الجزائر على الاوجاق والتشكيلة الانكشارية الموظفة من أماكن أخرى في الإمبراطورية والمعينة للإقليم على اساس دائم تقريبا والمفصولة سواء بالعمل او القانون الخاص بها عن بقية السكان الجزائريين، فبغض النظر عن ظروفهم الاقتصادية وخلفيتهم الاجتماعية فإنهم ينتسبون إلى المجموعة الحاكمة وبالمعنى السياسي فقد كانت الدولة بمثابة ملكهم الشخصي اما المعنى الاقتصادي فإنها بقدر ما تزداد ازدهارا بقدر ما يستفيدون اكثر.

وبالنسبة للسكان الجزائريين فان الاتفاقية الاصلية بين بابا عروج ووجهاء مدينة الجزائر قد نصت على انهم سوف لن تفرض عليهم اية ضريبة للواجبات الخاصة مقابل الحماية العثمانية، ولم يطالبوا الا بالطاعة والولاء للدولة واحترام القانون العام وبما لن الغالبية الحكام والمحكومين كانوا من المسلمين فان الاشتراك في مجموعة من المصالح كان امرا مفروغا منه⁴.

² - نفس المرجع ، ص : 76 .

³ - احمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1984 ، ص 10 .

⁴ - ارجمن تكوران ، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، تونس : منشورات الجامعة التونسية ، 1970 ، ص 20 .

لقد أدى استقرار الأتراك في مدينة الجزائر لتحويل نشاطات القرصنة في البحر الأبيض المتوسط إلى مؤسسة وقد تحكمت طائفة الرياس REICI في تنظيم وتمويل العمليات الحربية وقد كان القراصنة يوظفون من ثلاثة مصادر أساسية هي المرتزقة المسيحيون والمسلمون من مناطق أخرى في الإمبراطورية العثمانية إضافة إلى الأقلية الغير التركية من المغاربة كالرياس حميدو القبائلي

وقد كان للطائفة كأي مؤسسة بحرية أخرى رتب و طريقة للترقية من رتبة بحار إلى زميل ثم ضابط و أخيرا رياس وقبل أن يصل إلى هذه الرتبة الأخيرة يجب على المترشح اجتياز امتحان يجريه عليه ديوان الرياس، واعتمدت القرصنة على التمويلات القادمة من الخواص الأفراد والخزينة العامة معا واعتمد بذلك على طريقة الأسهم الحديثة ويعود للأفراد من الفوائد بقدر استثماراتهم، وشمل المستثمرون العديد من الفئات الاجتماعية من الانكشاريين والتجار وأصحاب الدكاكين والحرفيين الذين يضعون توفيراتهم الصغيرة لإعادة التجهيز وشراء الأخشاب وتجهيز السفن وإعادة بنائها والجمع بين بيع الأسرى والاستيلاء على حمولات السفن كانت مصدرا أساسيا لثروة الأفراد في مدينة الجزائر⁵.

✓ التقسيمات الإقليمية :

كانت الجزائر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم هي

- بايليك وهران : في الغرب
- بايليك التيطري : وعاصمته المدية في وسط الاقليم
- بايليك قسنطينة : في الشرق

⁵ - احمد توفيق المدني ، مرجع سابق الذكر ، ص 23 .

تقسيم السلطات العليا في مدينة الجزائر:⁶

لقد مرت السلطات العليا لمدينة الجزائر بثلاث مراحل هي كالتالي :

6- عقيل لطف الله نمير ، تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق : جامعة دمشق 2008 ، ص : 49-50

• المرحلة الأولى : مرحلة البايبربايات 1518 - 1587

الذين هم رسميون ويعينون مباشرة من السلطان العثماني، ويعد عهد البايبربايات من ازهى عهود الحكم العثماني في الجزائر اذ تميز بكثرة الاعمال العمرانية و الادارة السليمة وتنظيم البحرية وتوحدت الجزائر في هذا العهد سياسيا .

• المرحلة الثانية : عهد باشاوات 1587-1659

الذين يعينون لمدة ثلاث سنوات، تميز بازدهار القوة البحرية، ودخول الأجانب وحصولهم على الامتيازات في الاراضي الجزائرية .

• المرحلة الثالثة : مرحلة الاغاوات 1659-1671

الذين احزوا القوة بعد ازدياد قوة القارصنة، وقد تميز هذا العهد بالمحاولات المستمرة لفصل الجزائر عن الحكم العثماني .

• المرحلة الرابعة : عهد الدايات 1671-1830

تميز هذا العهد بعودة رياس البحر واستمر هذا العهد لحين سقوط الجزائر بيد فرنسا، وقد التزم الدايات بحفظ الارتباط مع الدولة العثمانية باعتبارها خلافة اسلامية لكنهم سلكوا سياسة مستقلة فيما يتعلق بالشؤون الخاصة للبلاد فالداي هو الذي يقوم بالوظائف الاساسية التالية :

✓ يعقد الاتفاقات الدولية

✓ يستقبل البعثات الدبلوماسية (القناصل)

✓ يعلن الحرب و يبرم معاهدات السلم

و كانت سلطة الداى تتحدد من خلال الهيئة الحاكمة المتمثلة في الديوان او مجلس

الدولة وكانت هناك هيتان حاكمتان : الدوان الكبير والديوان الصغير⁷

• الديوان الكبير: متكون من أربع وعشرين ضابطا متقادما، يستدعون بشكل

منتظم للمداولات بمقياس أربع مرات في الاسبوع في أيام الاثنين والأربعاء

والخميس والسبت في دار السلطان وكان كبار العلماء يسمح لهم بالمشاركة في

⁷ - عزيز سامح التر ، الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ترجمة : محمود علي العامر ، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، 1989 ، ص 72 – 73 .

المداولات بينما كان أعضاء الديوان يضعون قطعة من الشريط ذهبي في مقدمة عمائمهم للتعريف بمقامهم القانوني .

• **الديوان الصغير** : يتكون من حوالي سبعمائة ضابط وخادم انكشاري يتميزون بالرتبة والاقدمية .

وقد اخذت الدولة الجزائرية نظامها البيروقراطي من الدولة العثمانية فالأجهزة الادارية هي مشابهة لما هو موجود في الدولة العثمانية

ثالثا : واقع التنظيم الاداري

لقد كان للجزائر ابان الحكم العثماني تنظيما سياسيا و اداريا محكما يتميز بالبساطة والمرونة وقد فرض هذا التنظيم نفسه على الساحة الدولية، فقد كانت هناك مؤسسات سياسية وإدارية استطاعت الجزائر أن تحقق من خلالها بعض مظاهر العمران والحضارة الإسلامية وكذلك توحيد الجزائر ترابيا وتسييرها سياسيا من الجزائر العاصمة في نطاق حكم غير مركزي حتى مجيء الفرنسيين سنة 1980 وتحدد خصائص التنظيم الاداري العثماني في الجزائر في الخصائص التالية⁸:

1 - تمتعت الجزائر بكيان معترف به دوليا ومارست استقلالها حقيقيا في نطاق الرابطة

العثمانية و التي قوامها المصلحة المتبادلة و الروابط الروحية

2 - كان النظام الاداري المرآة العاكسة للأوضاع الاجتماعية السائدة في تلك الفترة حيث

تركزت المناصب الهامة في الدولة ذات الدخل الوفير في يد الاقلية التركية و المناصب

ذات الدخل المتوسط كانت حكرا على الكراغلة بينما كانت الوظائف ذات الدخل

المحدود من نصيب الحضر، وفي الأخير تبقى الوظائف الشاقة العديمة الاهمية من

نصيب فئة البرانية

3 - استند التنظيم الاداري في تلك الفترة الى التقاليد المحلية المتأصلة في الجزائر منذ

الفترة الاسلامية السابقة والتي ترجع الى جولة الموحيدين مثل وظائف المحتسب،

والقياد ، والشيوخ ،، الخ

⁸ د . ضيف الله عقيلة ، واقع التنظيم الاداري ابان الاحتلال الفرنسي للجزائر ، (المجلة الدورية لكلية العلوم السياسية و الاعلام) ، ديسمبر 2002 ص 87

4 - اتصف الجهاز الاداري بالمرونة و الفاعلية فقد كان بسيطا في تنظيماته عمليا في

اجراءاته يعتمد أساسا على توزيع الصلاحيات على الموظفين حسب ما تقتضيه

الضرورة و الحاجة

✓ الوظائف الرسمية :

كانت هناك اربع وظائف رسمية اساسية يشكلون مع الصورة الجماعية للدولة نهي كالتالي⁹ :

• الوكيلحارجي wikil hardji او وزير البحرية : الذي كان مسؤولا عن المؤسسة

العسكرية و المحاقظة على دار الصناعة وورشة بناء السفن

• الخازندار hazinedar الخزناجي او كبير الخزانة : وهو المسؤول عن الاقتصاد

والمالية و الإنتاج

• حوق الكيل hoca el –keil او متصرف الجمارك

• اغا ثكنة الجزائر: وهم يشرفون على هيئة من الموظفين الصغار الذين يمكن

تصنيفهم الى عدة أصناف: القطاع العسكري قطاع المراقبة و الامن

العدي ثم القطاع الاقتصادي .

وهناك عدد كبير من الموظفين يدعون حوقاس hocas و التي تعني المعلم وهذا لكونهم

يعرفون القراءة والكتابة و الذين اشتغلوا ككتاب ومراقبين وجامعين للضرائب .

اضافة الى وظيفة الشاوش التي تراوحت بين كونهم حرس خاص ثم مبعوثين للدولة

ومنفذين للعدالة إضافة إلى العديد من الوظائف الاخرى كمفتش الحمامات العامة

والمشرف على الأسواق ورئيس الشرطة

وبمثل هذه الفاعلية والمهارة في التنظيم انتظمت إدارة الدولة الجزائرية وقد كان لمدينة

الجزائر شيخ بلديتها الخاص بها وبجانبه مجلس المدينة وهذه المناصب كان يتولاها غير

الأتراك وذلك ابتداء من أيام المعاهدة القديمة مع بابا عروج .

⁹ - وليم سبنسر ، مرجع سبق ذكره ، ص 91 .

رابعا : نظام القضاء خلال العهد العثماني

ان الداي مصدر السلطة القضائية ويقوم بتفويض هذه السلطة إلى البايات والقضاة، مع امكانية سحب هذا التفويض في حالة رفض هذه الأحكام. وقد أقيمت في الجزائر محاكم خاصة بالمسلمين ومحاكم خاصة بالأسرى المسيحيين و أخرى باليهود وفي حالة ما اذا كانت هناك خصومات بين المسيحيين والمسلمين فان الداي هو الذي يفصل في هذه القضايا .

وبالنسبة للقضايا المتعلقة بمعاملات البيع والشراء والايجارو الزواج والطلاق فقد كان الداي يفوض للقضاة لكي ينظروا في القضايا والمنازعات المعروضة عليهم ويساعد القاضي احد اعوانه اضافة الى كاتبين يقومان بتسجيل الاحكام وتوثيق العقود، الى جانب وظيفة الشاوش والذي كان يتمثل دوره في المحافظة على الامن اثناء جلسات المحكمة والاشراف على تنفيذ الاحكام التي يصدرها القاضي .

وبالنسبة للمناطق النائية كان القاضي يقوم بتدريب المساعدين له ويرسلهم للقري الصغيرة لكي ينظروا في القضايا المعروضة عليهم ويطلق عليه اسم الوكيل، وبالنسبة للطعن في أحكام القضاة فان هذه الطعون تقدم للمجلس الشريف الذي كان يظم القاضي الملكي والقاضي الحنفي الى جانب المفتي الحنفي والمفتي المالكي، وفي كل يوم خميس يجتمع اعضاء المجلس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة للنظر في الطعون.¹⁰ اما بالنسبة للمسائل الجنائية مثل القتل والسرقة ،، الخ فقد كانت من اختصاص الداي او الباي خاصة بالنسبة للمسائل ذات الاهمية اما المسائل البسيطة فتوكل الى الشيوخ لمعاقبة المخالفين ، وفي دار السلطان اي العاصمة وضواحيها كان الداي يفوض خوجة الخيل لمحاكمة العرب والاندرلسيون يحاكمون من طرف الكيخيا و الأتراك من طرف الاغا، وتوجد مجموعة من رجال الامن تتكون من 11 شاوش يرتدون لباس اخضر يقومون بتنفيذ الاعدام في المسلمين غير الأتراك امام دار الحكومة

و بالتالي نلاحظ انه كانت للأتراك امتيازات مقارنة بالأهالي حيث كانوا يعاقبون سرا في دار الاغا الانكشارية حتى لا تهم كرامتهم أما باقي السكان فقد كانت الأحكام قاسية ومجحفة بالنسبة لهم، إضافة إلى انتشار الرشوة والرسوم المرتفعة

¹⁰ - د. عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية و الى غاية 1962 ، بيروت : دار الغرب الاسلامي ، 1979 ، ص 71-72 .

خامسا : الاوقاف او الاحباس

تعد الاوقاف من مظاهر الحضارة الاسلامية وكما تعبر كذلك عن تضامن المجتمع وقد برزت ملامح تطور ادارة الاوقاف في العهد العثماني كنتيجة سياسية واقتصادية، حيث يقوم تنظيمها وفق المبادئ الشرعية و يلتزم باحترام هذه المبادئ اواقف والمستفيدين من الوقف.

كانت الاوقاف الجزائرية تدار من قبل موظفين يدعون بالوكلاء تعيينهم السلطات العمومية الممثلة في الباي او المفتي ويتم اختيار الاشخاص بالنظر الى سمعة الشخص الاجتماعية من جهة التقوى والنسب وهذا التعيين ليس دائما وإنما يمكن إيقافه في حالة الإهمال وسوء تسيير الوقف، وتشمل وظيفة الوكيل إصلاح وصيانة الرفق الموقوف ودفع أجور العمال وجمع مداخيل المرافق من ايجار واستغلال .

انواع الاوقاف :¹¹

- الاوقاف العامة : وهي ممثلة في اوقاف بيت المال والطرقات والعيون
- الاوقاف الخاصة : ممثلة بأوقاف المساجد والجامع الكبير والزوايا والقباب
- اوقاف المؤسسات الدينية والاندلسيون والاشراف : والتي تمثلت اهمها في
أ - مؤسسة اوقاف الحرمين الشريفين : وهي اوقاف مدينتي مكة والمدينة وتعد من اهم المؤسسات من حيث عدد اوقافها والموارد التي توفرها
ب - مؤسسة اوقاف اهل الاندلس : وهي تتجاوز 101 وقف تعود فائدتها للأسر المنحدرة من أصل أندلسي وقد نشأت سنة 1572 من قبل اغنياء الجالية الأندلسية لمساعدة اللاجئين الفارين من الأندلس
ت - مؤسسة سبل الخيرات : تضم جميع المساجد الحنفية وعددها 14 مسجد
ث - مؤسسة اوقاف الاشراف : تحتوي على عدد من المراكز الوقفية وتضم جماعة الاشراف بمدينة الجزائر نحو 300 اسرة تشرف على سير تلك المؤسسات

¹¹ - خديجة بقطاش ، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر ، 1830-1871 ، الجزائر : بدون دار نشر ، ص 24 .

الخيرية وكانت هذه المؤسسات مسؤولة عن دفن فقراء المسلمين وتوزيع

الصدقات

وبالتالي فقد تمثل الدور الاساسي لمؤسسات الأوقاف هو خدمة الدين الإسلامي والتعليم وتعزيز التضامن الاجتماعي والتقارب الأسري داخل المجتمع ومساندة المعوزين

سادسا : الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية

عند دراسة أوجه النشاط الاقتصادي والحياة الاجتماعية للجزائر العثمانية يلاحظ الطابع الزراعي والرعوي الذي تمركز أساسا في الأرياف وأطراف المدن هذا في حين أن الحواضر تكاد تنفرد بالنشاط الحرفي لولا وجود قدر قليل من نشاط حرفي متواضع يهدف إلى تلبية الضرورات المنزلية ويقوم على الاكتفاء الذاتي في الأرياف. وإلى جانب ذلك لعبت التجارة الخارجية والداخلية دورا مهما داخل البنية الاقتصادية للمجتمع الجزائري عموما و البنية الحضرية بشكل خاص.

لقد هيمن النشاط الاقتصادي في الأرياف الجزائرية وبخاصة النشاط الزراعي والرعوي وفيما يخص أشكال الإنتاج فإنها كانت موزعة على أربعة مجالات طبيعية تتمثل في المرتفعات الجبلية والتلال والسهوب وأطراف الحواضر تشكل في مجملها كلا اجتماعيا واقتصاديا يميز الريف الجزائري والامتدادات الريفية التابعة للحواضر.

وبالرغم من تنوع هذه المناطق التي تنتحل هذا النمط من العيش فإن الانتماء إلى الجماعة العمرانية يشكل الشرط الضروري لاستمرار الحياة الاجتماعية ففي كنف هذا التجمع تتحقق ملكية العضو لشروط العمل والإنتاج أي أن انتماء الفرد للجماعة شرط تحقيق وجوده فهي تتوسط العلاقة فيما بينه وبين الأرض ووسائل العمل، وهكذا فإن العائلة الممتدة تشرف في المرتفعات الجبلية وبشكل نسبي على الملكية الصغيرة التي تعتبر مجالها واضحا

وتعتبر "التويزا « Touiza » " أكثر أشكال التضامن القروي شهرة وهي كثيرا ما تجد الفرصة للظهور في أراضي الأوقاف ويلاحظ أن الأب أو الأخ الأكبر في كل أسرة هو الذي يمثل أفراد أسرته في احتفالات القرية وينوب عنها في التجمعات التي تعقد في المسجد ومن أجل تأمين إعادة انتاجها فإن الأسرة تضيف إلى أنشطتها المعروفة بعض الصناعات الحرفية المرتبطة باستغلالها والتي أحيانا ما يوجه بعضها نحو السوق. أم

الملكية غير المنقولة التي تتحقق من خلال الهيبة أو الميراث فرغم كونها ملكية خاصة إلا أنها تبقى تندرج تحت استحواذ العائلة. والجدير بالملاحظة أن العثمانيين قد عملوا جاهدين على الاحتفاظ بالأوضاع السائدة، فأبقوا في غالب الأحيان ملاك الأراضي وأقروا العشائر المتعاملة معهم على الأراضي التي استحوذوا عليها بغية الحصول على تأييد شيوخ القبائل ومساندة رؤساء الزوايا لهم ولم يهتموا بصفة خاصة إلا بما تذرته الأرض من إنتاج وما توفره من جبايا وبالتالي فإن التطور الذي انتهت إليه وضعية الأرض من ناحية الإنتاج لم يكن نتيجة لسياسة معينة من طرف الحكام العثمانيين و إنما كان نتيجة تحول بطيء فرضته الأحوال الاقتصادية و ساهمت فيه الأوضاع الاجتماعية و تسببت فيه حاجة الحكام إلى موارد البلاد "إثر تزايد" الضغط الأوربي على السواحل و انفتاح البلاد على التجارة الأوربية.

لقد نتج عن كثرة المطالب المالية وقلة الجبايات على الأراضي الزراعية وتعدد المغارم، إهمال الزراعة و تحول قسم من السكان من الاشتغال بالفلاحة إلى مزاوله حرفة الرعي، وتحولت الكثير من الأراضي المنتجة للحبوب إلى ملكيات للبايلك أو مزارع مشاعة بين أفراد القبائل الحليفة "قبائل المخزن " أو العشائر الخاضعة "قبائل الرعية" بعد أن انقطع سيل الهجرة الأندلسية، وتسببت الحملات العسكرية التي كانت تنطلق من مراكز البايلك لجمع الضرائب وأخذ المغارم بأضرار فادحة بأهالي الريف و غالبا ما تمكن المحلة أو الفرقة العسكرية مدة طويلة قد تصل على ستة أشهر تتحول أثناءها الأرياف وتوجب الضرائب ويعاقب العقاب الممتنعون فمحلة بايلك الشرق تنطلق من قسنطينة وتنقسم إلى فيلقين أحدهما يجوب الهضاب العليا و التل الجنوبي و الأخرى تقصد مناطق التل الشمالية المتاخمة لساحل البحر، أما محلة بايلك البيطري فتتوجه من مدينتي الجزائر والمدينة نحو سهل عريب و بني سليمان و البرواقية، بينما محلة بايلك الغرب تخرج من مازونة أو معسكر نحو سهول غريس ووادي مينا وجهات السرسو وتاهرت. وبظهور دايات أقوياء وأكفاء و استقرار نظام الحكم على توسع أراضي الدولة بمواطن العشائر التي ثم إخضاعها، في الوقت الذي استقرت في أوضاع الملكيات المشاعة، وبدأ قسم من الملكيات الخاصة يتحول بفحوص المدن إلى أوقاف أهلية يعود ربحها بعد انقراض عقب محبسها على المؤسسات الدينية و المشاريع الخيرية.

سابعاً : الأوضاع الثقافية

حرصت الدولة في العهد العثماني على نشر التعليم في كافة المناطق من خلال بناء المدارس والكتاتيب فضلا عن اشراك الزوايا في هذه العملية، وكانت لغة الدولة الرسمية هي التركية اما العربية فكانت لغة التعليم التي اقتصر على العلوم الشرعية خاصة، ولم تكن نسبة الامية آنذاك تتجاوز 10 بالمائة وقد أكد احمد بوضربة أن كل جزائري تقريبا كان يعرف القراءة و الكتابة و في كل قرية جزائرية كانت توجد مدرسة ، وقد اعتمد تمويل التعليم على مصدرين أساسيين

- الخزينة العامة في اطار النفقات العمومية

- عائدات الاوقاف المتوجهة للمؤسسات التعليمية في شكل هبات و اعمال خيرية

✓ المؤسسات التعليمية: تمثلت المؤسسات التعليمية في المؤسسات التالية¹²

• المدارس: لقد كانت هناك العديد من المدارس خاصة في قسنطينة و

تلمسان

• المساجد: لم تكن المساجد في العهد العثماني أمكنة للعبادة فقط بل للتعليم كذلك

وقد وجدت في الجزائر العاصمة 176 مسجدا

• الزوايا: وهي مؤسسات دينية تابعة للطرق الصوفية تمارس فيها العبادة ويطلب فيها

التعليم وانتشرت هذه الزوايا في المدن والارياف.

• المعاهد: وتشبه الجامعات اليوم واشتهرت في الجزائر العاصمة المدرسة العليا

بالجامع الكبير والمدرسة القشاشية واشتهرت بتلقين العلوم العقلية بعيدا عن

المساجد.

• المكتبات: لقد كانت في الجزائر العديد من المكتبات وكانت في طليعة الدول

الإفريقية في هذا المجال ووجدت فيها كتب أندلسية وأخرى من مصر والحجاز

¹² - نصر الدين سعدوني ، الجزائر في التاريخ ، الجزء 4 ، بدون دار نشر ، 2001 ، ص 89

واسطنبول وتونس والمغرب وأشهرها مكتبة عبد الكريم الفكوني في قسنطينة وأهم العلوم التي ازدهرت في تلك الفترة هي¹³

- العلوم الشرعية: وتشمل تفسير القرآن ودراسة الحديث والعقيدة والفقه والسيرة
- العلوم الانسانية : وتشمل تدريس التاريخ واللغة العربية إضافة إلى الفلسفة والحساب والطب وكانت ترسل بعثات علمية إلى الأزهر بالقاهرة وجامع القرويين بالمغرب والزيتونة بتونس

الخاتمة :

من كل ما سبق يمكننا ملاحظة أنه على مر تلك السنوات التي غاشتها الجزائر تحت راية الدولة العثمانية قد ارسى قواعد الدولة وجعلتها في مصاف الدول الكبرى من خلال سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط وقيام رياس البحر في فرض الضريبة البحرية على كل السفن المارة خلاله، وتنظيم القوانين الشرعية والإحكام الأزمة لذلك في كافة المجالات، وبالتالي استمر حكم العثمانيين على مدى ثلاثة قرون بسطت خلالها الأمن و الاستقرار مع عدم التدخل في بلاد القبائل أو في المشاكل القبلية، وكذلك سيطرة الحكم على أمور الدولة الفتية وترسيخ أسسها من خلال تنظيم أمور الخزينة بين الإيرادات والمصروفات العامة، وتوسيع خزينة الدولة إلى حد قامت بمساعدة الدول المتضررة مثل فرنسا بعد ثورتها سنة 1789، إلا أنه ما يمكن أن نعبه على هذه المرحلة هو الجروح إلى سيطرة العثمانيين على الجزائر وأبنائها والإبقاء على الحكم طريقة سلطوية ونفعية

وعموما فقد امتزج فقد نتج عن امتزاج الأسلوب العثماني مع المغربي فيما يتعلق بالأنماط الاجتماعية والهندسة المعمارية والمهارات اليدوية وغيرها إضافة إلى وجود طريقة فعالة لجبي الضرائب وفلاحة كفافة فعالة وكذلك تجارة منظمة وفق قوانين صارمة إلى جانب الفوائد التي كان يحصدها القراصنة، كل ذلك أدى إلى وجود مستوى عال من المعيشة بالرغم أن أراضها لم تكن تضاهي الحجم الكلي الذي ضمته فرنسا للجزائر الفرنسية فيها كانت تتمتع بتجانس كبير وبتسيير جيد خلق امتزاجا

¹³ - نوال سقاي ، الاوضاع الاجتماعية و الثقافية في مدينة الجزائر في اواخر العهد العثماني ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بوزريعة ، كلية العلوم الانسانية ، 2008 ، ص 44 .

اجتماعيا متعاوننا ومتضامنا وهذا ما اختلف عنه الوضع تماما خلال المائة وثلاثين عاما التي قضتها الجزائر تحت الحكم الفرنسي
فقد اثبتت الجزائر في تلك الفترة فعاليتها كدولة وكقوة في الترابط الاجتماعي طوال ثلاثة قرون من الزمن.

المراجع :

- 1- وليم سينسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة عبد القادر زيادية ، الجزائر : دار القصة للنشر ، 2007 .
- 2- احمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1984 .
- 3- ارجمن تكوران ، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، تونس : منشورات الجامعة التونسية ، 1970 .
- 4- عقيل لطف الله نمير ، تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق : جامعة دمشق 2008
- 5- عزيز سامح التري ، الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ترجمة : محمود علي العامر ، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، 1989 .
- 6- د . ضيف الله عقيلة ، واقع التنظيم الاداري ابان الاحتلال الفرنسي للجزائر ، (المجلة الدورية لكلية العلوم السياسية و الاعلام) ، ديسمبر 2002 .
- 8- د . عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية و الى غاية 1962 ، بيروت : دار الغرب الاسلامي ، 1979 .
- 9- خديجة بقطاش ، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر ، 1830-1871 ، الجزائر : بدون دار نشر .
- 10- نصر الدين سعدوني ، الجزائر في التاريخ ، الجزء 4 ، بدون دار نشر ، 2001 .
- 11- نوال سقاي ، الاوضاع الاجتماعية و الثقافية في مدينة الجزائر في اواخر العهد العثماني ، (رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بوزريعة ، كلية العلوم الانسانية) ، 2008 .